الشيخ طاهر الجزائري

(القاها حضرة الكاتب الفاضل محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي وصاحب المقتبس بمدرسة الحقوق في دمشق على جمهور كبير من رجال العلم والادب يوم ٢٤ جمادى الاولى ١٣٣٨ و١٣ شباط ١٩٢٠ لدى مرور اربعين يوماً على وفاة الاستاذ)

يا سادتي ويا اخواني

لا اعرف من اين ابدأكم بترجمة عالم الامة العربية ومصلحها وصالحها . بقيت مذ اليوم الذي نعيت فيه به وانا اغالب الحزن فيغلبني واصارع الموضوع فيتعاصى عليّ فكأنني على ساحل بحر أخذتُ بعظمه فلا استطيع وصف لجته ولا ساحله تدفعني الرغبة ثم تأخذني الرهبة فلا ادري كيف اغوص على دوره واستخرج مواده الحيوية والعضوية والاثرية . نعم ان شيخنا بحر علم زاخر ومثال العالم العامل . ولذلك استسمح عفوكم ان قصرت في الواجب فالمحتفل بتأبينه كبير جداً في صفاته وشخصيته والوقت يضيق عن التوسع في تحليل حياة عظيمة كلها جهاد وجدٌ وفكر وذكر . ولعمري ان المجلد الضخم برأسه قليل اذا كتب في سيرة رجل جمع بين علم السلف وعلم الخلف وقد جاء على حين فترة من العلم ليمثل علماء الصدر الاول وهضم ما تعلم فامتزج علمهُ باجزاء نفسه الزكية ممتازاً باخلاقه وشيمه مجرداً عن المطامع بعيداً عن المظاهر . فكان العالم حقًّا وصدقاً خرج بعقله عن مألوف محيطه فنفع القديم القويم وانتفع بالحديث السليم

كلنا ايها السادة يعجب بالنابغة في فن من الفنون ولكن فقيدنا كان نابغة بعلمه وافكاره عبقريًّا باصلاحه وابتكاره فهو مجموعة نفيسة من العلوم ومكتبة سيارة ضمت في حناياها المفسر والمحدث والاصولي والفقيه والفيلسوف والاديب واللغوي والكاتب والشاعر والمؤرخ والاثري والطبيعي والرياضي والفلكي والاجتماعي والاخلاقي وبرز في كل فرع من الفروع التي قدر لهُ الاشتغال بها فعدّ في اهل الطبقة الاولى من رجاله . صفات يعجب لها كل من تأمل فيها وكيف لا يعجب من روح شفافة ملكية حصرت تحركتها الى ان رجعت الى ربها راضية مرضية في خير الامة وتحسين الملكات وتقوية مقومات الحياة في العاميات والعمليات

أيها السادة قد يفتتن المرء بابنه وشعره ويغالي في معلمه وسيده ويغلو في

مذهبه ومشربه وما نحن في فتنتنا بشيخنا الا على الحق وايم الحق وما وصفناه الا بما علمنا وقد علمت القصد والتجانف عن الغلو والافراط

نشأ استاذنا ومغذي ارواحنا وولي نعمتنا وغارس شجرة العلم والفضائل في ربوعنا على مثل ما ينشأ عليه طفل حسنت اصوله وفروعه وعجنت مادته في بودقة نقية تعهدتها انامل سليمة ووقتها عوادي التخليط والشوائب . ولد سنة ١٢٦٨ هـ في مدينة دمشق ووالده الشيخ محمد صالح مفتي السادة المالكية . ولما شدا شيئاً من علوم اللسان والشريعة اتصل بالمرحوم الشيخ عبد الغني الميداني عالم عصره وعاقل معصره فتخرج به حتى ظهر بفضله نبوغ تلميذه وذاق هذا بقوة فهمه وصحة حكمه ووفرة علمه على الشيوخ من معاصريه وهو في عنفوان شبابه

ولم يكن استاذه من الحشوية الذين يسدون في وجوه مريديهم طرق البحث والنظر بل كان عالماً بحاجة رائده العقل الرجيح رائده العلم الصحيح فنشأ تلميذه على افضل الاخلاق واصح المبادىء العلمية لم يمارس التافهات ولا شغل قلبه بالبدع والضلالات فكان درسه عليه درساً حقيقياً يراد منه الرجوع بالشريعة الى اصولها والاخذ من آدابها بلبابها ومحاربة الخرافات التي استعمرتها طبقات المتأخرين ولا من يجرؤ على انكارها . فجمع الى سلامة الفطرة وقوة العارضة جودة النظر واخذ النفس بالعمل فجاء منه بالدرس والتحقيق فيلسوف الهي او عالم عصري اشبه الاوائل في هديه وطريقته وتمثل بالاواخر في نظره ودرسه وتسامحه . وتلميذ كهذا اذا تخرج باستاذ كهذا يأتي ولا وشك على يده من صنوف الخير ما لا يكتب بعضه لمن جمد على قديمه وجحد فضل حديثه

نبذ الاستاذ التقليد في امور كثيرة ولذلك جاءت اعماله في ادوار الثلاثة اي كونه متعلماً وعالماً ومعلماً حافلة بالغرائب الناقمة . ولقي من مقاومة المقاومين وكيد الكائدين الحاسدين من المعاصرين ما يلاقيه كل من يبتدع طريقة جديدة وخصوصاً يوم تصدى لتأسيس المدارس الابتدائية الاميرية وانشاء دار الكتب الظاهرية على عهد المرحوم مدحت باشا والي سورية . ولو لم يرزق عزماً ثابتاً وحزماً يهزأ معه بالمصاعب اذا كان فيها سلامة الامة وادخال النور الى العقول المظلمة لفشل في عمله لا محالة . والجمعية الخيرية التي كانت مؤلفة في الظاهر من علماء دمشق وعلمائها كان شيخنا قوتها المفكرة ويدها العاملة وقد ساعده في جهاده

المرحوم بها بك مكتوبي الولاية اذ ذاك ومن ادباء الاتراك الذين صفت نفوسهم من وصمة الشعوبية وكان لهُ الاثر المحمود في انهاض الامة العربية . ولما اندمجت الجمعية الخيرية في المعارف واصبحت دائرة رسمية عين استاذنا مفتشاً عاماً لمعارف سورية وكان من قبل يتولى التعليم في المدرسة الظاهرية فتيسر لهُ ان يطوف المعالم والمجاهل من القطر السوري ويبذر في كل مكان ينزلهُ بذرة من بذور فضلهِ تأتي أُكلها فعمرت بفضلهِ كتاتيب كثيرة اميرية وخصوصية وخزائن كتب خاصة وعامة ومنها دار الكتب الخالدية في القدس .ومن اهم ما كان يلتزم الدعوة اليهِ وهي نفسهُ وامنيتهُ الى ان وافتهُ منيتهُ « اصلاح الاخلاق والعادات »

لم يكن استاذنا في الحقيقة المؤسس الاول فقط للمدارس الابتدائية والاستعدادية في ديارنا بل كان روحها وعقلها يؤلف لها ما يلزمها من كتب التدريس ويعلم معلميها ما ينقصهم في فروعهم ويلقنهم اصول التعليم وهو لا يتظاهر بتعليمهم بل كأنهُ يذاكرهم ويناقشهم. ومن الكتب التي وضعها على ذلك العهد الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية وقصص الانبياء ومد الراحة لاخذ المساحة وكتاب في الحساب وخواص الاجسام في الطبيعيات ورسالة في النحو واخرى في البديع وثالثة في البيان ورابعة في العروض وكتاب سماهُ تسهيل المجاز الى فن المعمى والالغاز الى غير ذلك مما هو مطبوع متداول.ومن اهم كتبهِ شرح رسائل ابن نباته وارشاد الالبا الى طريق تعليم الف با وهو من اهم الكتب في علم التربية والتعليم على الطريقة العملية يعدُّ من مبتكراتهِ .ورسالتهُ وجداولهُ في الخطوط ورسالة امنية الالمعي وكتاب توجيه النظر الى اصول الاثر وهو مجلد ضخم فيهِ من ضروب التحقيق ما ينم على سعة علم مؤلفهِ وكتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن وهو مقدمة تفسيره الكبير الذي لم يطبع ويدخل في بضعة مجلدات . ومما طبعهُ مقدمة لمعجم اللغة الذي وضعهُ ولم يوفق الى طبعهِ وهو في جملة تركتهِ الثمينة . ومن مؤلفاتهِ التي لا تزال تحت الطبع امثال العرب التي يصح الاستشهاد بها وتؤخذ منها حكمة وسياسة .وآخر كتبهِ التي طبعها هذه السنة التقريب الى اصول التعريب وهو نموذج صالح من احاطتهِ باللغة العربية واشتقاقاتها واستكناه اسرارها وتمكنهِ من امهات اللغات التي تعد من اخواتها ولاسيما اللغة الفارسية وكان يحسنها جيداً كالتركية وينظم فيها الشعر ويعرف

من الافرنسية والعبرانية والسريانية والحبشية كل ما له علاقة بالعربية من المفردات والاوضاع ويتكلم بلغة الزواوي . ومن مؤلفاته الالمام باصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام طبع منهُ بضعة كراريس . ومقاصد الشرع وغير ذلك

اما معرفة الاستاذ بالشريعة وتاريخها والملل والنحل وما يتشعب عنها وتاريخ العرب وتراجم رجالهم وسلاسل انسابهم ومناقضاتهم ومناظراتهم فهو فيهِ الحجة الثبت بل العلم المفرد لو تيسر لعالم غربي اليوم ان يجمع بعضهُ في صدره لعدَّ في الصف الاول بين العالمين. وقد ساعده على النبوغ في ذلك قوة حافظتهِ التي لا تكاد تنسى ما مرَّ بهِ مهما طال العهد. وتذكراتهُ البالغة عشرات من المجلدات تحتوي قدراً غير يسير من وصف الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة للمحدثين والاقدمين وهي غريبة في بابها فبينما تراهُ ينقل رأياً مهمًّا في التفسير او خاطراً صحيحاً في الاصول او شاردة نادرة في الادب اذا بك تراهُ ينقل جملة طريفة في مذهب النشوء والارتقاء او رأياً جديداً للعاديين او اكتشافاً مهمًّا للاثريين. ولا اغالي اذا قلت انهُ قرأ جميع الكتب التي طبعت في الشرق والغرب باللغة العربية او ترجمت من اللغات الاوربية الى لغتنا. اما المخطوطات التي تدارسها واختصرها او علق عليها فتقرب من المطبوعات ان لم تكن اوفر عدداً. ومعظم ما كان يتصفحهُ يكاد يتلوهُ تلاوة تدبر وتحقيق وقد يعاود مطالعة الكتاب الجيد مرات . وقلَّ ان يدانيهُ احد ممن رأيت من العلماء هنا وفي الغرب في معرفة المظان ولذلك كان يستسهل التأليف متى وجد من يطبع لهُ وقتما وجد بغيتهُ في هذا السبيل ويا للاسف فرعا الف الكتاب الممتع في اسبوع في موضوع صعب يحتاج فيهِ غيرهُ الى سنة ولكن على شرط ان يعرف ان العزعة تصح على اخراجه للناس بالطبع غداً

لا يخطر ببال من يرى الشيخ من بعيد لاول مرة انهُ عالم وفي هذه الطبقة من العلم لانهُ كان يتزيا عن قصد بزي السوقة العامة حتى لا يكون لهُ امتياز على غيره . واعظم من هذا ان يراه آية من آيات الله في السياسة يحكم على المسائل قبل وقوعها فيصيب في حكمهِ على الغالب. واذكر انهُ تنبأ بوقوع الحرب الاوربية العامة قبل ان يقتال قتيل سراجيفو وقال ان سورية تخرج عن حكم العثمانيين في القريب العاجل. ومعرفة الاستاذ بالسياسة — وقد شهد لهُ بهذه المعرفة كبار الاخصائيين — منبعثة ولا شك من استبحاره في معرفة طبائع الامم وتواريخها ووقائعها دع ما

هنالك من ذهن وقّاد وخاطر مولد ومادة منوعة بقيت تزيد الى قبيل وفاته باسبوعين زيادة مطردة

وكان لهُ رحمهُ الله غرام بمطالعة الصحف السياسية والمجلات العلمية لا يكاد يترك منها جملة مهمة الاّ ويقرأها ويفضل من الصحف والمجلات ما يكثر فيهِ الترجمة لانهُ يرى ان الاستعداد للتأليف قليل وخير لنا ان ننقل عمن سبقونا اشواطاً بعيدة في المدنية. وكم من مجلة او جريدة في الشام ومصر أنشئت باشارتهِ ومعاونتهِ وكم من كتاب ورسالة نشر بتنشيطهِ او تصحيحهِ وتعليقهِ . فكان همهُ الاكبر احياء آثار العرب ثم التعريب عن امم الحضارة الحديثة

ومما عرف بهِ انهُ كان يقصر طريق العلم على من يتوسم فيهِ استعداداً للتعلم من اي طبقة كان ويبدأ بدرجهُ من البسائط. وكم من عامي اصبح بتدريبهِ القليل يؤلف ويكتب . وكان لا يجوّز ان يحرم من نعمة العلم احد مهما كان جنسهُ ومذهبهُ ويرفع غشاوة الوهم عن عيون طالب العلم . اما المتشهي الذي يجلس اليهِ ويحاول ان يسألهُ في عويص المسائل وهو لا يدرك مباديها فيعرض عنهُ حتى ادّعى بعضهم ان الشيخ طاهراً ضنين بعلمهِ والحقيقة ان الشيخ يقصد ان يحيل اولئك المتشهية على الدرس بانفسهم حتى اذا حصلت لهم ملكة تمكنهم من انفهم تحل لهم المشكلات ثم يتعلمون بذلك الاعتماد على النفس لا ان يضيعوا اوقاتهم واوقات غيرهم في مسائل لم يستعدوا لها ولا قرأوا اوائلها

كان الاستاذ على جانب من التسامح مع اهل الاديان والمذاهب لم اسمعهُ طن في احد لمذهب. يعجب رؤساء الفرق المختلفة ويخشع من تعصبهم لنحلهم مع طول العشرة وذكر كتب لهم يطالعونها . الاّ انهُ كان لا يتسامح ان يعرّض احد ببعض الائمة او ببعض الخلفاء الذين كان يقدسهم لحسن بلائهم في خدمة الاسلام والمسلمين. وكان على كثرة غرامهِ باللغة العربية وحبهِ للعرب لا يحط من قدر غيرهم من الشعوب والامم ويحب ان يذكر كل محسن باحسانهِ وتعرف كل امة بخصائصها الطيبة. وكان يعجب بجلد علماء المشرقيات في الغرب ولهُ مع الطبقة العليا منهم مساجلات يستفتونهُ في مشاكلهم فيحلها لهم ويكاتبونهُ وترتاح نفوسهم لعشرتهِ

وكان من المعجبين بالتربية الانكلوسكسونية مثلاً ولكنهُ يعرف لكل جيل ولاهل كل افق مزاياه وصفاتهِ وبقدر ما كان يمدح من آداب الترك كان يقدح

في حكومتهم ويتذرها بالانقراض لظلمها ولانها قضت على العلوم الاسلامية فصيرتها صورية وجعلت معظم اوضاعها وترتيباتها رسمية خيالية ولذلك لم يكتب لها البقاء. وقد زادت كراهتهُ لهم وسعيهُ في زوال سلطانهم من طرق العلم والدعاية المثمرة يوم اشتدوا في الضغط على الافكار وعطلوا دروس العلم ودرسوا معاهدهُ ومدارسهُ ثم قاموا بالدعوة الى تحريك العناصر . وكان مع هذا لا يرى ان يجبه صاحب القوة تفادياً من بطشهِ بل يحتال عليهِ لئلا تسحق القوة القليلة الغير المنظمة امام القوة الكبيرة المنظمة. وان الاولى بالامة الضعيفة التي تحاول تحريرها من قيود رقها ان تعد اسباب النهوض من علم واخلاق ثم تنقض يدها من يد ظالمها وربما كان اذ ذاك الفراق بدون دم مهراق . فهو صاحب ثورة فكرية لا صاحب ثورة دموية . وكان ابداً يقول كل اصلاح يقوم بسرعة وعلى غير اساس يسقط بسرعة متداعياً وكل ارتقاء لا تستند دعائمهُ الى العلم الصحيح لا يتيسر الانتفاع منهُ ولا الاستمتاع بهِ

وكان مع هذا التسامح المحبوب متصلباً في دينهِ يأبى منهُ رخصه وعزائمه ولا يؤخر صلاة عن وقتها. يصوم ويزكي وقد حج مرة كما ذهب الى احد معارض باريز مرة . لم يدخل طريقة من الطرق ولا جمعية من الجمعيات لانهُ كان يحتاط ابداً ولا يحب ان يتقيد لاحد ولا لفكر خاص ولكنهُ كان كالداخل في كل طريقة وفي كل جمعية يأمنهُ اهل المذاهب والمشارب المختلفة على اسرارهم ويفاتحونهُ باعمالهم. ومن ديدنهِ ان يأخذ الدين حقهُ والدنيا حقها . ويقيم الاعذار لغيرهِ ولا يعترض على احد في مشربهِ ويحب ان لا يعترض عليهِ فيما اختار. ويهدي من يرى فيهِ استعداداً الى سلوك سبيل الرشد بالصحبة وتجيب المطالعة اليهِ واطلاق فكرهِ من قيوده ليجول مستقلاً

وكان على جانب عظيم من التشدد في اخلاقهِ لا ينزل عن شيء منها حتى مع الملوك والامراء ولو لم يكن زاهداً بما عندهم من النوال والمظاهر لاصاب شيئاً من حطام الدنيا ربما كان يستعين بهِ على نشر علمهِ وترويج نشرهِ فكان لسان حالهِ على الدوام لا يقبلوا على العلماء واعرفوا لهم اقدارهم كما كانت الحال عند الاقدمين لا ان يستخدم الملوك علماء الامة سلماً لمآربهم لقاء عرض قليل. ولذا قضى حياتهُ مقنعاً عليهِ في الرزق على انهُ لم تؤثر عنهُ شكوى من قلة اصابها ولا تبرم من حالة

صار اليها ولا بدرت من لسانهِ بادرة ينبو عنها الادب او يكون فيها شتم وهجر. اما النعيم والهناء فلا عهد لهُ بهما بتاتاً ولم يتزوج حباً باستحصال رضا والدتهِ اولاً ثم حباً بالانصراف الى الدرس والبحث مباشرة. وكيف يؤلف أسرة من يقضي ليلهُ في الدرس الى الفجر. وقد بقي على ذلك القسم الاعظم من حياتهِ تؤرقهُ افكارهُ وهو يفكر في تشخيص امراض الامة ووصف الدواء الشافي لها

قلَّ في رجالنا من رزق ارادة قوية كارادة المترجم بهِ فكان لا يدهش للحوادث مهما عظمت ويحاول تخفيف البلاء عند نزولهِ ويغرس في قلب جليسهِ طول الامل والانصراف الى العمل ويهوّن المصاعب والمصائب. وقدر من كتبت لهم شجاعة ادبية كشجاعتهِ التي طالما اخرجتهُ من مآزق صعبة. وقلَّ الثابتون في صحبتهِ اللهمَّ اذا كانت لهم همم تقارب همتهُ وانفس يريدون ان يخرّجوها بنفسهِ ويروضوها بادبهِ. عصبي المزاج اذا تفكر في امر مستطاع عزم عليهِ ولا يرجع عنهُ حتى يتمهُ ولو كان فيهِ المنت والتعب هذا مع معرفتهِ بانحطاط المحيط وان كل اصلاح لابد ان يقاومهُ الحكام او المحكوم عليهم

لم يساعدهُ الزمان في رغائبهِ. نشأ في زمن بقيت فيهِ بقايا من العلوم القديمة احتفظ اهلها بها وارادوا بقاءها محصورة في بيوت معدودة لا تتعداها ولذلك قاومهُ بعض المنتسبين للعلم ايام جاهد في بث التعليم بين جميع طبقات القوم. وبينا هو يدافع الجامدين على القشور من القديم ويحاول اصلاحهُ حتى يبقى السالت العلوم الطبيعية فاخذ يتوقى تيارها باليمين ويوفق بين التليد والطريف. لا جرم ان عصر الاستاذ كان عصر الثورة الفكرية في سورية وهو اهم عامل فيها ولو قدّر لهُ ان يعيش مرفهاً بعض الشيء كما يعيش العلماء في الغرب لعهدنا وان يعمل عملاً منظماً في اوقات معينة وهو مكفي المؤونة لبلغ ما ألفهُ من الكتب والرسائل مئتين او ثلثمائة مجلد وذلك لسرعتهِ في التأليف واطلاعهِ من الابحاث التي يطرقها وحضور ذهنهِ وعقلهِ الى آخر نسمة من حياتهِ

ولقد رأيت صدر الاستاذ يتسع لكل اوضاع المدنية الحديثة الاَّ الموسيقى والتمثيل فلم يكن لهُ فيهما حظ. وتعليل ذلك ان اللهو واللعب لا محل لهما في سجل اعمالهِ ومطالبهُ اعلى واغلى. وقد نشأت الموسيقى والتمثيل في الشرق على اساس اللهو والتعابي وربما يطول امرهما كثيراً حتى يجمعا بين الفائدة واللذة كما هما في

الغرب والى اليوم يقصد بهما التصابي والتلهي وهما بعيدان عن قلب الاستاذ. وشعره الغزلي في صباه كان ينظمهُ مجاراة لشعراء الغزل وكثير من شعره في الحكم ووصف الزمن وشعره ارقى من شعر الفقهاء ودون شعر المتأدبين من الشعراء. ولم يعرف عن الشيخ ان تصابى الا مرة واحدة في ايام شبابهِ وذلك انهُ كان مع بعض رفاقهِ في قصر بدمر فجاءت فتاة اسرائيلية حملها رفاقهُ على ان تقترب من الشيخ وتشوش عليه ترتيبهُ وكان يأوي الى ظل شجرة مستغرقاً في كتبهِ فلما رفع رأسهُ وادرك ان الفتاة مسوقة احب ان لا تفوتهُ النكتة فاخرج اليها من جيبهِ قطعة من القمر الدين قائلاً « اتاكلين قمر الدين يا قمر الدين » وصرفها عنهُ بسلام

اما منزلة الاستاذ في الكتابة والخطابة فطريقة السهل الممتنع يكتب ويخطب مع الطبع بدون تكلف وقد حفظت من رسائلهِ الثمينة اليَّ منذ خمس عشرة سنة ما لو جمع لجاء منهُ احسن دستور في التربية والارشاد يتأدب بهِ من يريد التطوع في خدمة الامة من طريق العلم والعمل. وكانت امالية في مجالسهِ تدل على ميلغهِ من قوة البديهة وصفاء القريحة الوقادة النقادة وقد يجود في الاكثر ويخاص من الكلمة المغربية بتاتاً اذا لحظ من جلسائهِ ارتياحاً الى الاستزادة من الكلام وهاجت اعصابهُ فاراد تقرير حقيقة ونشر فكر صحيح

وبعدهُ فقد لقي الاستاذ الطاهر من الحكومة الحميدية ما كان يلقاهُ كل حر من الارهاق حتى اضطر ان يهبط مصر منذ اربع عشرة سنة واقام على ضفاف النيل كما كان على ضفاف بردى ينشر بين الناس علمهُ ووجد من رجال النهضة المصرية قلوباً اجمعت على حبهِ واعجبت بمواهبهِ واخلاقهِ فكان الصدر المقدم حيث نزل وأنى رحل. ولما شعر منذ زهاء اربعة اشهر باستحكام المرض منهُ وخشي عواقب الثورة الناشبة هناك عاد الى مسقط رأسهِ فعينتهُ الحكومة مديراً لدار الكتب العربية التي كان اسسها منذ اربعين سنة وجعلتهُ عشراً موظفاً في المجمع العلمي. وبينا النفوس فرحة بعودتهِ الى هذه العاصمة لينفعها بمعارفهِ الناجعة وتجاربهِ الناضجة وتنتظر تقرير حالة البلاد السياسية لتعود الامة فتفكر على ما يجب في التذرع باسباب نهوضها اذ دعاهُ داعي المنون وهو بين تلامذتهِ ومريديهِ وبقايا اصحابهِ واخوانهِ فدفن بدموعهم في صنين قاسيون. وحق لهذا الجبل ان يفاخر بضم رفات علم من اعلام العرب والاسلام ومظهر من مظاهر العقل الكبير في مصر والشام